مقتطفات للترجمة غير قابلة للبيع
من كتاب:

ميشايل باون
السلطة والذكاء الاجتماعي
لماذا أصبحت المجتمعات الحديثة مهددة بالفشل

جميع الحقوق محفوظة. أي استخدام للنصوص أو للصور أو بعض منها بدون موافقة مكتوبة من دار النشر يعتبر انتهاكاً لحقوق الملكية الفكرية ويخضع للعقوبة. يسري هذا بوجه خاص على نسخ النصوص أو ترجمتها أو استخدامها في الأنظمة الالكترونية.

حقوق النشر
Fischer Verlag GmbH, Frankfurt am Main

الفصل الأول
أسس

الذكاء الاجتماعي

يدور هذا الكتاب حول السلطة والذكاء الاجتماعي. ولكن ما هي السلطة؟ وما هو الذكاء الاجتماعي؟ فلنبدأ بالمصطلح الأخير. سوف أشرح ببساطة ما هو المقصود بالذكاء في هذا الكتاب، وما هو المقصود بالذكاء *الاجتماعي* على وجه الخصوص، بدلاً من المشاركة في المحاولات العديدة لتفسير الذكاء، وهي المحاولات التي أصبحت في هذه الأثناء ظاهرة للكل.

المقصود بالذكاء هنا هو القدرة على حل المشكلات باستخدام وسائل فكرية، على أن يكون الحل سريعاً ومرناً بقدر الامكان. من يحاول حل مشكلة مستعصية بسرعة باستخدام القوة قد يؤكد بذلك على طبيعته المحاربة لدى أتباعه – ولكن هذا الحل باستعمال القوة الغاشمة ليس له علاقة كبيرة بالذكاء. فالمحارب يمكن أن يبرهن على ذكائه الحقيقي إذا استطاع أن يستخدم تفكيره ليجد حلاً للمشكلة. ولكن إذا استطاع أن يقوم بذلك بسرعة وإذا استطاع أن يثبت في مناسبات أخرى أيضاً قدراته كشخص قادر على حل المشاكل، هنا نشهد له أيضاً بأنه يتمتع بمستوى عال من الذكاء.

نفس الشيء ينطبق على الذكاء الاجتماعي. فالشخص الذي يعرف كيف يحل المشاكل الاجتماعية باستخدام وسائل فكرية بسرعة ومرنة هو شخص يبرهن على امتلاكه للذكاء الاجتماعي. ولكن ما هي هذه المشكلات الاجتماعية؟ إن أهم المشكلات الاجتماعية هي تلك التي تمس الحياة المشتركة والعمل المشترك داخل الجماعة. الشخص الذي يمتلك ذكاءً اجتماعيًا هو شخص قادر على حل هذه المشكلات ويساعد الجماعة بذلك على تقديم أداء أفضل. يقوّي هذا الشخص استقرار الجماعة ويدعم قواعدها ويعمل على حل النزاعات، خاصة العنيفة منها، أو يعمل على تجنب هذه النزاعات من الأساس. في النهاية، سيكون على هذا الشخص مساعدة الجماعة على تحقيق أهم احتياجات أعضائها – فقط في هذه الحالة وإذا تحقق هذا الشرط، يستطيع الشخص ذو الذكاء الاجتماعي أن يعتمد بدوره على الجماعة. للذكاء الاجتماعي أيضاً علاقة بالمشكلات الشخصية. فالشخص ذو الذكاء الاجتماعي ينجح في تجاوز المصاعب الاجتماعية التي تواجهه: فهو قادر على سبيل المثال على العثور على الأشخاص المسئولين والتوافق معهم وتحقيق مصالحهم داخل الجماعة دون أن يهمل احتياجات الآخرين، فلو أهملها، لن يكون ذكي اجتماعياً لأنه في هذه الحالة سوف يضيف مشكلات جديدة إلى الجماعة.

الذكاء الاجتماعي مثله مثل الذكاء بشكل عام، فهو أولاً وقبل كل شيء القدرة الفردية لكل كائن من الكائنات الحية، وخاصة البشر، على تحسين مستوى التنظيم داخل الجماعة وتجنب المواجهات. هنا سوف أتحدث عن *الذكاء الفردي الاجتماعي*. ولكن مدى نجاح أعضاء الجماعة في التعاون فيما بينهم لا يعتمد فقط على الأفراد. فالمهم أيضاً هي الطريقة التي يتعاملون بها مع بعضهم البعض والقواعد السارية داخل الجماعة ومؤسساتها. هنا سوف أتحدث عن *الذكاء الاجتماعي المؤسسي*.

للذكاء الاجتماعي المؤسسي أهمية خاصة، لأننا غالباً ما يكون في مقدورنا تغيير المؤسسات والقواعد. أما الذكاء الفردي فيصعب تغييره، حتى إذا قمنا بتنميته بواسطة التدريب والتربية: فمؤثرات التدريب والتربية لن تكفي وحدها لحل المشكلات الصعبة التي نواجهها في حياتنا المشتركة – خاصة وأننا لابد وأن نعيد تشكيل الذكريات المؤسفة مرة أخرى حتى نحصل على نتيجة ما. إلا أن شكل وطريقة حياتنا سوياً يعتمدان أيضاً على القواعد التي وضعناها كما يعتمدان على ثقافة الحياة المشتركة لدينا وتستندان بالإضافة إلى ذلك إلى المؤسسات التي تحدد طريقة هذه الحياة المشتركة، أي إن حياتنا المشتركة تعتمد على الذكاء الاجتماعي المؤسسي، وهذا الذكاء الاجتماعي المؤسسي يمكن احداث بعض التغيير به. وكلما كانت معرفتنا أفضل بالشكل الآخر الفردي للذكاء الاجتماعي، كلما نجحنا في احداث هذا التغيير – وهذه هي الفرضية التي سوف أناقشها في هذا الكتاب.

السلطة

لم يبدأ النقاش حول موضوع الذكاء بمعناه الذي وصفناه سابقاً إلا منذ أقل من مائة عام، بينما كان النقاش حول السلطة على أشده بين الكتاب القدماء. لازالت الأفكار التي عبر عنها كل من نيكولو مكيافيللي Niccolò Machiavelli (1469 – 1527) وتوماس هوبز Thomas Hobbes (1588-1679) أو ماكس فيبر Max Weber (1864 – 1920) ذات تأثير واضح حتى اليوم. فكلهم كانوا يتبنون النظرية المسماة *بنظرية الصراع*، وهي نظرية لاقت انتشاراً واسعاً. وكما نفهم من اسمها، فإن هذه النظرية تفترض أن السلطة ترتكز على الصراع والعنف. وأن السلطة يفوز بها من يمارس العنف أو على الأقل من يهدد بممارسته، كما إن الناس تخضع للسلطة إما لأنهم أُجبروا على ذلك باستخدام العنف أو لأنهم توقعوا استخدام العنف معهم إذا لجأوا للمقاومة. أما المؤثرات النفسية فلا تلعب في هذه الحالة دوراً بشكل عملي.

هناك علاقة بين السلطة والعنف بدون شك. يلعب العنف في المقام الأول وفي أحيان كثيرة دوراً هاماً أثناء توطيد هياكل السلطة وعند احتلال مواقع السلطة أيضاً؛ سوف أعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى في الفصل الثاني. لكن حتى في تلك المواقف فإن الدور الذي يلعبه العنف يظل محدوداً: ڤيلهلم الفاتح مثلاً كان يمكن أن يزيح أعداءه عن طريقه بالعنف – لكن ليس بمقدروه ضمان اخلاص جنوده وأتباعه باستخدام العنف: فمن الواضح أن الجوانب النفسية مثل الاخلاص والثقة وربما أيضاً التعود لهم هنا دور أيضاً. ولكن الأخطر هنا هو أن نظرية الصراع حول السلطة تجد صعوبة في شرح السبب وراء غياب دور للعنف خاصة داخل هياكل السلطة المستقرة الا في حالات قليلة. فقد اختفى كل من العنف والتهديد بممارسة العنف من الحياة اليومية في الدول الحديثة إلى حد بعيد، بالرغم من أن حجم السلطة والسيطرة في هذه المجتمعات أصبح أكبر بشكل واضح عما كان عليه داخل البنى الحكومية في العصر الوسيط أو في بدايات العصر الحديث. وهذا يؤكد أيضاً أن هياكل السلطة لا يمكن لها أن تعتمد بشكل أساسي على العنف.

يمكن أن يكون هذا واحداً من الأسباب التي أدت إلى اهتمام أكبر بمدخل آخر مختلف اختلافاً كلياً: وهو المدخل الذي يسمى بنظرية توافق القوى. وفق هذه النظرية فإن السلطة لا تعتمد على العنف، ولكنها تعتمد على موافقة المحكومين. وتعتبر هانا آرنت Hannah Arendt أهم من تبنى هذا المفهوم عن السلطة؛ وهناك مداخل أخرى مماثلة من حيث المبدأ عبر عنها كل من تالكوت پارسونز Talcott Parsons ومارك هوجارد Mark Haugaard.

تنظر آرنت إلى السلطة كعنصر أساسي ضروري لوجود الجماعات. لا تُفرض السلطة على الجماعة باستخدام العنف، ولكنها تنشأ من خلال التوافق الذي يعضد الجماعة خاصة في

بداية تكونها. لا يمكن الجمع بين العنف والسلطة في مفهوم آرنت، فالعنف يدمر السلطة الحقيقية التي تأسست من خلال التوافق.

تواجه هذه النظريات صعوبات في التطبيق عندما نلحظ أن البحث عن التوافق العام، خاصة في الحياة اليومية في الدول غير الديمقراطية، ليس أساسياً على كل حال. بالإضافة إلى ذلك، فالسبب الذي يدفع المواطنين إلى الاستمرار في التوافق – إذا حدث وتحقق لهم – ليس واضحاً. فهذا التوافق يجعلهم يتنازلون عن حقهم في السيطرة على حياتهم ولو بشكل جزئي على الأقل، ولكنهم لا يحصلون في المقابل على على أية ضمانات تضمن لهم عدم اساءة استخدام السلطة.

هذا يعني إذن أن حتى هذه النظرية عن توافق القوى بها بعض الثغرات. لكني أريد أن أوضح أنه يمكن ملء هذه الثغرات بواسطة المعارف الاجتماعية النفسية. فالبشر مجبرين على الاعتماد على الحياة داخل جماعة تؤدي دورها بكفاءة وذلك لأسباب عديدة. يسري هذا بشكل خاص على مرحلة طفولتنا. ومع ذلك، فالأغلبية منا - حتى بعد أن يتخطوا مرحلة الطفولة – يظلون غير قادرين على تحمل الحياة معتمدين فقط على أنفسهم – خاصة إذا كان بامكانهم الاستفادة، ولو سراً، من منجزات الحضارة الحديثة مثل المعدات الاستكشافية الحديثة وظروف الحياة الآمنة إلى حد ما حتى في المناطق النائية.

نحن في الواقع، لسنا *ملزمين* بالحياة داخل جماعة، لكن الحياة داخل الجماعة *امكانية* متاحة لنا. فقد استطاع علماء علم النفس الاجتماعي والعلماء المتخصصون في الأعصاب تقديم عدد كبير من البراهين تؤكد أننا مهيئون بطبيعتنا للحياة داخل رابطة ما. هذا يعني أيضاً أننا نؤجل في كثير من الأحيان تحقيق مصالحنا الفردية، بل ونتصرف تصرفات تبدو غير عقلانية للغاية، فقط من أجل اتاحة الفرصة لتحقيق علاقات اجتماعية مستقرة. وفي نفس الوقت، فإذا كان صحيحاً أن هياكل السلطة ضرورية من أجل أن تعمل المجموعة بكفاءة، فعلينا أن نفترض إذن أن البشر لديهم استعداد فطري للحياة داخل هذه الهياكل. أريد أن أؤكد هنا أن مثل هذا الاستعداد الفطري لا يحدد سلوكنا، ولكنه يؤثر فيه تأثيراً قوياً اً بشكل أو بآخر. فلا يمكن أبداً أن نتعلل بهذا الاستعداد الفطري لنبرر وجود هياكل سلطة معينة . فالقمع مثلاً لا يمكن تبريره بدعوى أننا نخشى أن تصبح صورتنا لدى الآخرين سيئة اذا قررنا الحياة بعيداً عن الجماعة.

ظهر في هذه الأثناء، كما سيتضح فيما بعد وبالتفصيل، العديد من البراهين على وجود هذا الاستعداد الفطري، ليس فقط بين البشر، ولكن أيضاً بين الحيوانات التي تحيا بشكل اجتماعي. تقدم لنا هذه الدلائل مجتمعة معلومات هامة عن الغرض من هياكل السلطة كما تقدم معلومات عن الآليات النفسية التي تستند إليها هذه الهياكل عند نشأتها.

مفهوم السلطة المستند إلى التجريب

من هنا نشأ مفهوم عن السلطة يستند إلى التجريب، أو بالمعنى الأكثر دقة، نشأ مفهوم عن هياكل السلطة يستند إلى التجريب. يؤكد هذا المفهوم في خطوطه العامة ما

اقترحته سابقاً لتوضيح الفكرة. تُستخدم هياكل السلطة إذن لتنظيم سلوك أعضاء الجماعة وخاصة لايجاد حلول للنزاعات التي تنشأ بينهم، أو لتجنب هذه النزاعات قبل ظهورها. لا تعتمد هياكل السلطة هذه على استخدام العنف ولا على التهديد باستخدامه، بل تعتمد على الذكاء الاجتماعي: فالذكاء الاجتماعي يجعلنا قادرين على التعاون مع الآخرين مما يؤدي إلى تجنب النزاعات إلى حد بعيد. وفقاً لهذا المفهوم فإن السلطة لا تعتمد على العنف – بل العكس تماماً: السلطة في هذا المفهوم هي نقيض العنف، لأنها تتجنب النزاعات العنيفة وتلجأ عوضاً عن ذلك للآليات النفسية.

سوف يتضح لنا أن الكثير من هذه الآليات ذات تأثير أيضاً على الحيوانات التي تحيا بشكل اجتماعي. فعلى سبيل المثال يمنع النظام التراتبي الصارم لدى هذه الحيوانات تصارعها حول الفريسة أو حول أية موارد أخرى، لأن هذا النظام يحدد شروط الأسبقية لحيوان عن الآخر. تعمل أغلب هذه الآليات بنفس الشكل مع الانسان؛ إلا أنها تؤثر فيه بشكل غير واع ولذا يصعب التعرف عليها وتحديدها. تؤدي هذه الآليات في أحيان كثيرة إلى تبني سلوك قد يبدو للوهلة الأولى غير عقلاني، ولهذا السبب نعجز عن التعرف عليها إذا حاولنا البحث عن أسبابها العقلانية. فعلى سبيل المثال ينتاب البشر أعراض شبيهة بأعراض الألم كرد فعل على استبعادهم من الجماعة، ويحدث لهم ذلك حتى لو كانوا رافضين التعامل مع الجماعة من الأساس. هذا ليس رد فعل عقلاني – إنه غالباً إحدى الآليات النفسية التي لازال تأثيرها باقياً لدى البشر رغم إنها نشأت في مرحلة مبكرة من مراحل التطور البشري، ولهذا فإننا غير واعين للأسباب التي تجعل هناك صعوبة في التحكم فيها.

قد يكون هذا أحد الأسباب لعدم خضوع هذه الآليات للبحث والدراسة من قبل. فهناك حواجز منهجية بين علم النفس الاجتماعي من ناحية وبين العلوم الانسانية والاجتماعية من ناحية أخرى كانت هي السبب في عدم دخول العديد من المعارف النفسية في تكوين النظريات الفلسفية والسياسية ونظريات علوم الاجتماع حتى اليوم – رغم أن هناك بعض الدوريات التي ظهرت في هذه الأثناء ووجهت اهتمامها إلى الارتباط القائم بين العلوم الاجتماعية وعلم النفس. أريد أن أوضح في المقابل أنه بامكان هذه المعارف أن تؤدي لفهم أعمق للسلطة، ليس هذا وحسب، بل إن بامكان هذه المعارف أيضاً خلق ظروف أفضل لايجاد حل للمشكلات التي تثيرها هياكل السلطة حتى يومنا هذا: فإذا فهمنا كيف تنشأ السلطة، يمكن أن تتحسن قدراتنا في التغلب على الجوانب السلبية للسلطة.

نظريات الصراع

فلنتأمل بداية المداخل الكلاسيكية بشكل أكثر دقة. تفسر نظريات الصراع مثل نظرية ماكس ڤيبر السلطة بوصفها القدرة على التغلب على أشكال المقاومة – وتتغلب عليها عادة باستعمال العنف أو على الأقل بالتهديد باستعماله. ونستطيع التعرف على هذا الرأي بوضوح في تفسير ماكس ڤيبر الشهير للسلطة:

السلطة تعني استغلال كل فرصة لفرض الارادة الذاتية داخل أية علاقة اجتماعية وتُفرض رغماً عن أية مقاومة أو معارضة بغض النظر عن الأساس الذي تعتمد عليه هذه الفرصة.

هنا يمكن أن تلعب الحوافز الايجابية دوراً، كذلك تلعب الامتيازات دوراً، وتعتبر وسائل يضمن بها القابض على السلطة نفاذ ارادته.

يبدو هذا الرأي للوهلة الأولى على الأقل مفهوماً، الا أنه يفترض أن البشر يتبعون في العادة مصالحهم العقلانية: نحن إذن نسمح للآخرين بامتلاك السلطة حتى نتحاشى السلبيات ونفوز بالمميزات. هنا تصبح السلطة من حيث المبدأ مرادفة للقوة: فمثلما يحدث عندما تصدم كرة البلياردو كرة أخرى وتجبرها على الحركة بفعل القوة، يدفع أيضاً أحد الأشخاص شخصاً آخر لاتباع ارادته عن طريق ممارسة السلطة عليه. هنا لا تصبح ممارسة العنف بشكل مباشر

ضرورية. علينا فقط أن *نعرف* أن احتمال ممارسة العنف قائم. ولأننا أشخاص عاقلون، فسوف نتخذ حذرنا من هذا الاحتمال: بهذا الشكل تلعب الجوانب النفسية هنا دوراً. لكن العنف يظل دائماً متواجداً في الخلفية من أجل تعضيد المطالبة بالسلطة – لهذا السبب يفسر ڤيبر هياكل السلطة من خلال العنف: هكذا يفترض ڤيبر مقتبساً تروتسكي Trotzki: «كل دولة تتأسس على العنف.»

وفقاً للنموذج المعياري فإن هذا المفهوم الذي يضع نصب عينه القوة والسببية كان قد عبر عنه توماس هوبز من قبل. فالسلطة في نظر هوبز هي بشكل عام القدرة على الحصول على الممتلكات. لكن نظراً لأن البشر في منافسة دائمة مع بعضهم البعض، فلا تُعتبر السلطة حقيقية إلا إذا كانت السلطة الذاتية أكبر من سلطة المنافسين المحتملين: فالسلطة التي أملكها يمكن أن تقضي عليها سلطة أخرى أكبر ويمكن أن تحيدها سلطة أخرى مساوية لها في في القوة.

يصبح التطابق بين السلطة والقوة هنا واضحاً بشكل خاص: يتعامل البشر مع بعضهم البعض من خلال علاقات القوة تماماً كما تتعامل الأجسام الفيزيائية مع بعضها البعض – أما العوامل النفسية فهي هنا ثانوية على أقصى تقدير. يقوم هوبز في الواقع بعقد مقارنة مباشرة بين السلطة والسببية: « سلطة الفاعل والسبب الذي يحدث التأثير هما نفس الشيء.»

تمتلك السلطة المفتاح الذي يسمح بالحصول على جميع االممتلكات، ولهذا السبب ينتاب البشر جشع لا يهدأ تجاه السلطة. في الحالة الطبيعية يؤدي هذا إلى تنازع دائم بين الكل. ولا ينتهي هذا التنازع إلا إذا رجحت كفة أحد أطراف النزاع بشكل واضح بحيث تبدو أية مقاومة ضده غير منطقية. من هنا تنشأ سلطة الدولة المؤسسة على العنف. ولكن إذا أظهرت الدولة أي ضعف في أية لحظة، فسوف يستغل المحكومون هذه الفرصة للتعبير عن رغبتهم الكامنة في المعارضة – فقط العنف المتفوق هو ما يستطيع كسر هذه الرغبة. هكذا يصبح الاعتراف بسلطة الدولة العليا هو الأمر الصائب من وجهة نظر جميع الأطراف، وإلا استمر التنازع بين الجميع إلى الأبد.

قد يكون رأي هوبز عن السلطة وتحكم الدولة مقبولاً في أوقات الحرب الأهلية وهو الوقت الذي عاصره الكاتب. لكن لا يعد هذا الرأي كافياً ليصبح قاعدة عامة لأنه يتجاهل البعد النفسي لعلاقات القوة، كما يتجاهل البعد الاجتماعي النفسي على وجه الخصوص. فقد تخلت الدولة منذ وقت طويل عن الاعتماد على سلطتها العليا على مواطنيها. لهذا السبب، فمن الواضح أن مفهوم كل من هوبز وڤيبر عن السلطة لم يعد كافياً، لأنهما يستندان إلى السببية وإلى إمكانية لجوء الدولة لممارسة العنف.